تقديم

بقلم هاوَرْد زِن[*]

هناك، حقاً، مخاوف تقوم على أسباب معقولة. ولكن هناك أيضاً أوضاع، هي في العادة من صنع الحكومات، تُستثار بها الشعوب إلى عنف يخرج عن نطاق السيطرة ويتخذ أشكالاً متنوعة-من السحل، إلى الحروب، إلى أعمال الإبادة الجماعية- كل هذا يحدث عن طريق استغلال الخوف غير المعقول، واستخدامه في التلاعب بمشاعر الناس وأفكارهم.

ويزخر التاريخ بأعمال الإبادة الجماعية التي ارتُكِبت في أجواء من الخوف الذي صُنِعَ لتحقيق غايات سياسية. من ذلك: شن الحروب الصليبية ضد "الكفار"؛ ومذابح الأتراك ضد الأرمن عام 1915؛ والهجوم على اليهود والشيوعيين في ألمانيا إثر إحراق مبنى البرلمان الألماني (رايشتاغ) عام 1933م.

كما كانت أعمال ملاحقة ومطاردة المعارضين للكنيسة في نيوإنغلاند[*] مبنية على فظائع غامضة وغير مرئية، شكلت عاملاً مهماً في تعزيز سلطة رجال الدين من طائفة البيورتانز[*]. كما أدت المخاوف المتبادلة بين السكان البيض

(*) روعي في ترجمة الأسماء الإنجليزية تمثيل طريقة لفظها بالأحرف العربية والاستعاضة عن أحرف العلة ذات الصوت القصير بعلامات الشكل (الضمة والفتحة والكسرة) لكي تكون كتابة الاسم أقرب إلى طريقة لفظه في اللغة الإنجليزية مع إسقاط الحروف التي لا تلفظ.

(*) تطلق هذه التسمية على المنطقة الواقعة شمال شرق الولايات المتحدة الأمريكية وتضم ولايات مين، ونيوهامبشير، وفيرمونت، وماسيتشيوستس، و رود آيلاند، وكنكتيكت (و تلفظ: كنا كي تكْت).

(*) طائفة مسيحية متشددة انفصلت عن الكنيسة الانجليزية وهاجرت إلى أمريكا فراراً من الاضطهاد الديني في بريطانيا واستقرت في منطقة نيو إنغلاند من العالم الجديد، وكان لرجال الدين في تلك الكنيسة سلطة على المجتمع المحلي.

obeikandl.com

والهنود الحمر، الحقيقية منها والمفتعلة، إلى ارتكاب مذابح شنيعة من كلا الطرفين.

وبُعَيد حرب الاستقلال الأمريكية ضد بريطانيا، استَخدمت الدولة الفتية في عهد الرئيس جون آدمز المخاوف المتنامية من الثوريين والأجانب من أجل تمرير **قانون الأجانب والفتنة**، والذي كان من نتائجه المباشرة تقييد حرية التعبير، والسماح بالترحيل التعسفي للمهاجرين الذين لا يحملون الجنسية الأمريكية.

وتلجأ الدول في كثير من الأحيان، إلى تحويل زعماء دول أخرى إلى رموز لتخويف المواطنين من أجل دعم حرب ما. ففي عام 1917، وفي الولايات المتحدة، استُخدم القيصر الألماني رمزاً من هذا القبيل، وتعزز ذلك بالمخاوف التي برزت نتيجة قيام الغواصات الألمانية بإغراق السفن الأمريكية، الأمر الذي سهل عملية تجنيد وتعبئة الشعب الأمريكي للحرب، وسجن كل من تسوّل له نفسه المجاهرة بمعارضتها.

وفي نهاية الحرب العالمية الأولى، استخدم الكشف عن وجود قنبلة في منزل المدعي العام الفدرالي(*) بالمر في تسويغ اعتقال وترحيل آلاف من الذين لا يحملون الجنسية الأمريكية.

وغالباً ما تستخدم الأحداث المأساوية في خلق جو من الخوف تصبح الحرب في ظله أمراً مقبولاً، وتعطل فيه الحقوق الدستورية. فمثلاً، أدى تفجير البارجة الأمريكية (مين) عام 1898 في خليج هافانا، والذي أودى بحياة مئات

(*) يطلق عليه في بعض الترجمات وزير العدل، وهذه التسمية الأخيرة أقرب إلى الوصف الوظيفي لعمله، مع العلم أن نظام الحكم في الولايات المتحدة الأمريكية يستخدم أوصافاً وتسميات تختلف عما هو شائع في الدول الأخرى كاستخدام كلمة سكرتير بدلاً من وزير، وكلمة إدارة بدلاً من حكومة، ودائرة بدلاً من وزارة... إلخ. ولا عبرة باختلاف المسميات ما دامت مدلولاتها واحدة.

من البحارة الأمريكان، إلى احتلال كوبا مباشرة خلال الحرب الإسبانية – الأمريكية. وفي الحرب العالمية الثانية، كانت الهجمات المباغتة على ميناء بيرل هاربر فرصة سانحة لبث الذعر والخوف من أعمال تخريب يابانية محتملة بل وربما احتلال ياباني للولايات المتحدة، مما أدى إلى اعتقال قرابة مائة ألف من المواطنين الأمريكان المنحدرين من أصل ياباني ووضعهم في معسكرات اعتقال جماعية.

وبعد بضع سنوات من انتهاء الحرب العالمية الثانية، ظهر أكبر حدث كارثي مخيف وهو الكشف عام 1949 عن نجاح الاتحاد السوفييتي في بناء وتجربة أول قنبلة نوويه خاصة به. وكان ذلك مؤذناً بزيادة التوتر في "الحرب الباردة" إلى أعلى مستوياته. وترتب عليه انتشار الخوف الهستيري من الاتحاد السوفييتي بشكل سريع في طول البلاد وعرضها بتشجيع من الحكومة ووسائل الإعلام.

وفي ذلك المناخ بالتحديد، جرى إخضاع الأطفال في جميع مدارس الولايات المتحدة إلى تمرينات حول كيفية الاختباء تحت مقاعدهم لحماية أنفسهم من تأثيرات الهجمات النووية السوفييتية المحتملة. وكانت تلك هي حقبة "المكارثية"(*) التي أنشأت فيها لجنة تقصي النشاطات المعادية لأمريكا ما يشبه محاكم التفتيش ضد الأكاديميين والشخصيات البارزة في عالم الفن.

وفي تلك الفترة، جرى إعدام إيثل وجوليوس روزينبيرغ(*) بواسطة الكرسي الكهربائي، وتم إدراج ملايين من المواطنين الأمريكان في قوائم المشتبه فيهم بالانتماء إلى الشيوعية، أو بدعم وتأييد القضايا المتطرفة، وكان ينظر إلى

(*) نسبة إلى عضو مجلس الشيوخ جوزيف مكارثي الذي اشتهر بأسلوبه القمعي والتعسفي وغير المهادن في تعقب كل من يشتبه بانتمائه أو تعاونه مع الشيوعية (1950–1954).

(*) مواطنان أمريكيان أعدما عام 1953 بتهمة التجسس لصالح الاتحاد السوفييتي بتقديم معلومات سرية حول الأسلحة النووية الأمريكية.

أي ثورة في أي دولة من دول العالم الثالث على أنها جزء من مؤامرة شيوعية عالمية.

لقد مكّن خلق "الرعب الأحمر" الحكومة من تخصيص ميزانيات عسكرية ضخمة وتكديس الأسلحة النووية إلى حدود تتجاوز بكثير حدود "الردع". وكان يصدر بين الحين والآخر إنذارات منتظمة مؤسسة على ادعاءات كاذبة حول "الفجوة في قاذفات القنابل" والتي زُعم فيها أن الاتحاد السوفييتي كان يملك أعداداً من قاذفات القنابل أكبر بكثير مما هو موجود لدى المعسكر الغربي، ثم تبع تلك الدعاية زعم آخر هو "الفجوة الصاروخية".

في حين أن التقارير الداخلية الصادرة عن أجهزة الاستخبارات الأمريكية كانت تشير إلى أن الحشد العسكري السوفييتي كان يتخلف عن الحشد الأمريكي بأشواط بعيدة. إلا أن هذه التقارير تم تجاهلها لأن التخويف كان يخدم أهداف السياسية الخارجية العدوانية وتجمع صناعات الأسلحة التي كانت تسعى إلى تحقيق مزيد من المكاسب المادية.

واليوم، تلعب المخاوف من "الإرهاب" الدور نفسه الذي لعبه الخوف من "الشيوعية" خلال الحرب الباردة. ومع أن الجائحة التي حلت بنا في الحادي عشر من سبتمبر كانت حقيقية كتفجير البارجة "مين"، أو إحراق مبنى البرلمان الألماني رايشتاغ، أو وجود الاتحاد السوفييتي. إلا أنها استخدمت، كما في الأمثلة المذكورة، في خلق هستيريا لا تقوم على أسباب معقولة لتسويغ سياسات حكومية تمتد جذورها إلى ما هو أبعد من تاريخ الأمة: سياسات توسعية، وتدخّل عسكري، وقمع للمعارضة.

وتمثلت هذه السياسات في العصر الحاضر في تدمير واحتلال أفغانستان والعراق، وإنشاء المزيد من القواعد العسكرية في الشرق الأوسط. وزيادات

ضخمة في الميزانية العسكرية، ومحاولات لتقويض حرية التعبير وتعطيل الضمانات والحقوق الدستورية.

وسيجد القارئ في الصفحات التالية سلسلة من التأملات العميقة والمدهشة حول هذه القضية: وهي العلاقة بين الحادي عشر من سبتمبر وتوسيع الإمبراطورية الأمريكية.

❀ ❀

obeikandl.com